فلسفة طاغور فى العلم والعمل

للأديب عبد العزيز محمـــد الزكى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

ويفسر طاغور إنفصال إرادة الإنسان عن إرادة الله إنفصالا ظاهرياً غير مطلق ، بأن الله قد منح الإنسان بدافع من حبه له حرية التصرف فى شئون العالم ، كما يمنح الأب لإبنه مقداراً من المال ، ويترك له حرية التدبر فى حدوده ؛ فهذا المال ما زال ملكا للأب وإن وهبه لإبنه ، وأخرجه من نطاق إرادته . وكذلك المال بالنسبة للانسان ، فأن حرية إرادته دائماً ملكا لله ، وأنه أغدق بها عليه ، وأخرجها من نطاق إرادته ، وترك له حرية العمل فى حدودها ، وفى مجال الشئون العالمية .

فالإرادة عند طاغور حرة من جهة ، ومقيدة من جهة أخرى فهى أولا حرة من حيث أن الله وهبها السيادة على الأمور المتصلة بعالمنا الصغير ؛ حتى يمكن أن تخضع لقانون إرادته الكبير طائعة مختارة ، وبدون فرض أو إلزام ؛ وحتى تتحد باللانهاية ، وتتفق حريتها الكاملة إللا محدودة ، التى لا تتم إلا بتوافق إتحاد إرادتين حرتين . وهى ثانياً مقيدة من حيث أن الله جعلها محدودة ، وخاضعة لقانونه ، إذ لو منح الإنسان إرادة غير مقيدة بقانونه ، وتعمل بدون حدود ، لفقدت قدرته كل معنى لها ، ولتعذر عليها أن ترتقى وتكمل ، لأن القوة لا تنمو وتتطور وترتقى وتكمل ، إلا إذا كانت تعمل فى حدود ؛ أى أن الإرادة التى تعمل فى حدود ، يمكنها أن تتقدم فى الرقى إلى أن تكمل ، بأن تخضع لإرادة الله إللا متناهية ، وتندمج فيها ، وتصبح هى وإرادة الله إرادة واحدة تملك حرية مطلقة غير محدودة

أما عن الإرادة التى تتخدع بحريتها المحدودة ، وتندفع فى تيار الإنفصال ، وتتمرد على إرادة اللانهاية ، بدافع من الإنانية والغرور والكبرياء وحب السيطرة والعناد والجشع وحب التدمير ، وبدافع من جهل حقيقة وحدة الكون الكامنة فى الطبيعة الإنسانية ؛ فإنها ستعيش أبداً فى حدودها الملوثة بالشهوات ، وستظل أسيرة المظهر وسجينة الباطل ، فتقع فى الخطايا ، وترتكب الآثام والذنوب ، وتجلب على نفسها العار والمزلة ، وتضطر فى النهاية إلى أن تتراجع شيئاً فشيئاً عن مسلكها الخاطىء ، وترجع إلى منبعها اللانهائى الذى فصلت منه بأرادة الله ، وتخضع إرادتها الفردية للارادة الكبرى ، بأن تظهر طبيعتها الكامنة فى النفس الإنسانية ، وتشعر أن الوجود كله وحدة كاملة ، وتدرك أن وجودها

جدوى البكاء وقد صرت فى عصمته ؟

وأثار كلام فاطمة حزنها كله فاسترسلت فى بكائها وسحب هذا البكاء أنين متقطع ، كأنما كان ما ألقى فى سمعها من كلام طعنات خنجر شاءت فى جسمها فى كل موضع منه طعنة ...

ونظرت فى وجه فاطمة تحسب أنها من أعدائها ، ورأيت فى وجهها كأنها تريد أن ترى فاطمة ما تغتزم عليه من عصيان ...

ولمحتنى فاطمة من خلال الصفصاف فقمزت صاحبتها وهمست فى أذنها ؛ ومسحت بهيجة عينيها بذيل ثوبها الأبيض الذى سحبته من تحت ردائها الخارجى الأسود ، وأصلحت الفتاتان جرتيهما ووضعتاهما على رأسيهما ، ومر رجل فأعانهما على حمل جرتيهما وانطلقتا صوب القرية ...

ولاحظت على بهيجة أنها لا تكاد تقوى على حمل جرتها ، فكانت خطواتها أثقل من خطوات صاحبتها ، وكان عودها اللدن يتثنى من إعياء لا من عجب تحت جرتها الثقيلة ، وما زلت أتبعها بنظراتى حتى غيبتها عنى فى منعطف عيدان الذرة ...

وبقيت ساعة يكرب نفسى ما يحزن بهيجة ، كما تكدر خاطرى طيوف منكرة سوداء من السم والحريق والقتل وإتلاف الزرع من جرائم الريف يمثلها لى هذا السبب الذى سمته بأذنى ؛ وطاف برأسى الطلاق والنفقة والهجر والخصام وبيت الطاعة والمارك بين الأسر ، بل ما روعنى من سور الخيانة والفجور وغيرها من أفعال الظلام ، وما تجره فى أعقابها من شر وانتقام . كل أولئك مثلته لى ثورة بهيجة ...

القصيف

الفردى فى اتحاد تام مع هذا الوجود الشامل ، وبذلك تحقق حريتها الكاملة ، مثلها فى هذا مثل البرعم ، فإن كانت حرية البرعم لاتتحقق إلا بظهور الزهرة الكامنة فيها ، فإن كمال حرية الإرادة لا ينال إلا بمعرفة الحقيقة الكائنة فى أعمق أعماق النفس ، وإدراك اتحادها بالجوهر الثابت الذى يشتمل سائر الأشياء . وذلك لا يكون إلا بخضوع إرادة الإنسان لسلطان إرادة الله اللامتناهية عن طريق العمل الدائم التجدد فى مختلف نواحى نشاط الإنسان ، وعن طريق فعل الخير وأفكار الذات ، وعن طريق ملاشاة فرديتنا الإنسانية فى الله ، والإيمان العميق بحقيقة وحدة الوجود الشاملة ...

وقد يرى لى بعض الهنود أن اعتزال الحياة ، وتجنب المجتمعات واحتقار الأعمال الدنيوية ، وهجرة الأهل ، والتجول فى الغابات وسكن الكهوف والمغارات من خير السبل لتحقيق حرية الإرادة الكاملة ، وتخليص الروح من العوائق المادية التى تحول دون إنطلاقها فى اللانهاية غير مقيدة بأى قيد . غير أن طاغور ينكر على هؤلاء الهنود أنه يمكنهم بهذا السلوك ، أن يفوزوا بحريتهم الكاملة فى الحياة ، لأن النفس مهما كانت طهارتها لا تستطيع أن تعيش حرة على إحساسات ومشاعر وأفكار محبوسة فى داخلها لا تشتمل بموضوعات خارجية ؟ وأن الإرادة مهما بلغ تحررها من الشهوات والرغبات ، ونالت من حرية روحية ؛ بأنها لا تحقق حريتها الكاملة فى الحياة ما دامت هذه الإرادة تنفر من العمل ، ولا تقبل أن تؤدى أية مهمة فى العالم الإنسانى ، غير أن تقطع علاقاتها بكل ما فى الأرض ، ناشدة بذلك تحقيق إدراك وحدة الوجود الشاملة الكامنة فى قرار الطبيعة الإنسانية .

وقد ينادى بعض القوم ، ويظنون أن الخوض فى الحياة يسبب للانسان آلام متنوعة ومتاعب جمة ، تقلق النفس ، وتدب فيها الخوف ، وتملؤها بالحزن كما يزعمون أن الموت نهاية الحياة فيكفى أن تقوم بأعمال تسد رمقنا ، ونبعد عنا قساوة الجوع والعطش ؛ إذ ما فائدة عمل متواصل يتجدد فى حياة يهددنا فيها الموت فى كل لحظة ! وطاغور لا يغفل ما فى الحياة من آلام قاسية ، ومتاعب مضنية ، قد تكشف عن خيبة الإنسان فى عمله وتبين له نقصه فى المعرفة ، وتشعره بضعف فى إرادته ؛ إلا أنه يقرر إنه إذا نظر إلى أعمالنا الفردية من ناحية محدودة ، يكون وقع الآلام قاسى على النفس ، أما إذا نظرنا إليها من ناحية أعم وأوسع ، فشمل ما يقصد بها من تحقيق المثل الأعلى لكمال الحياة تشعر بالسرور ، وتذهب وطأة هذه الآلام عنا حين نعرف أن أعمالنا ترمى إلى غاية سامية يهون فى سبيلها المتاعب . كما يمكن أن نتجنب الفشل فى العمل بالمصابرة فى التدرب عليه حتى تتقن أدائه ؛ وأن نصلح ما نقع فيه من إخطاء با كمال نقصنا فى المعرفة ، وبالتزود بنور العلم ؛ وأن نقوى ما فى إرادتنا من ضعف بمحاربة الباطل والشر فى داخل نفوسنا وخارجها . وذلك كله يعمل على تقدم الحياة الإنسانية ورقيها . وقدرة الحياة على التقدم لدليل قاطع على كذب حس قوم يمعنون فى التشاؤم ، ويعتقدون أن الحياة شر فى شر ، وأن المؤمن فيها لا يجلب إلا الآلام والمتاعب . ولذلك يرى طاغور أن التشاؤم ليس إلا مجرد مظهر عاطفى أو عقلى ينبذ ما فى الحياة من سرور وقدرة على التقدم ، فيحدث قوى من الحزن المصطنع الذى يظمىء بدوره النفس إلى الاستزادة من التشاؤم ، ويبعث فيها اليأس والقنوط ، فتوقع الفشل فى كل عمل وتتوهم الموت فى المخيف المرعب فى كل خطوة ، فلا ترى فى الحياة إلا آلام وموت بينما يمكن التغلب على أسباب الآلام كما سبق أن ذكرت . أما الموت فما هو إلا حقيقة سلبية ، وليس حقيقة أخيرة فى الوجود ، وإنما الحقيقة اللانهائية فهى وحدة الكون الشاملة ، وما هو كذلك إلا حدث من أحداث الحياة التى يعد الموت جزءاً منها ، ولا يعبر عن حقيقتها إنما يعبر عن حقيقته فقط فلا يجب أن يفزعنا كل هذا الفزع ونقصر فى العمل ، ونهمل التجديد فيه ونقنع فيه بذلك العمل الذى تقرره لنا الطبيعة كما تعمل الحيوانات من أجل الطعام والشراب .

ليس هناك إذاً باعث جدى يمنع الإنسان عن العمل ؛ فإن الفشل سبيل إلى النجاح ، والألم وجه من أوجه السرور ، والنقص هو الذى يدفعنا إلى الكمال ، ويجعلنا عظماء فى الحياة . فلا يجب أن يفزعنا الألم والحزن ، ونتجنب العمل المتعب ، فإن حرية الروح فى تحمل المتاعب . وعلى الذين ينشدون تحرير أرواحهم ، ويريدون الحياة فى اللانهاية ، أن يزاولوا أعمالا مستمرة جدية ومجدية ، وأن يخلقوا ميادين متعددة للعمل ، ويجتهدوا فى ترقيتها وتوسيع نطاقها ، وألا يقنعوا بالأعمال البدائية التى تقررها لهم الطبيعة . فإن الاستمرار فى العمل يحرر قوى الإنسان ، ويعينها

القدرة على التجديد فيه . فإن الرجل الذى يحول غابة موبوءة إلى حديقة جميلة ، قد حرر قواه واستطاع أن يعطى هذه الحديقة جمالا يعبر عن جمال روحه ؛ أما إذا تعذر عليه أن يعطيها هذا الجمال ، فقد فشل فى تحرير روحه من الداخل ، وخاب فى التعبير عنها بالعمل ، وعليه أن يستمر فى مزاولة عمله والتدرب عليه حتى يحرر قواه فيتمكن من أن يظهر طبيعته فى مختلف نواحى النشاط الإنسانى . إلا أن هذا الإظهار لا يتم ما لم يتحرر العمل نفسه من ضغط الحاجة من ناحية ، ومالم يتميز كوسيلة يقصد بها وجه الله ، ومالم يرفض النظر إليه كغاية فى ذاته ، وينتظر من ورائها نفع قروى محسب من ناحية أخرى . لأن الحرية الصحيحة لا تكتسب فقط بالعمل بل يشرط فى اكتسابها حرية الإنسان فى عمله ولا يساق إليه بحكم ظرف عارض مثل الفرق أو الجوع ، فإنه حين ذاك يعمل وفق المصادفة والإتفاق ، ويصير عمله نوعاً من التدبير الوقتى المصطنع الذى لا بد أن يتركه بعد أن يزول أو يتغير هذا الظرف العارض . فوق أن ضغط الضرورة يعوق النفس عن إظهار حقيقة طبيعتها فى العمل . ولذلك لا يجب أن يكون باعثنا على العمل الفرق أو الجوع ، وليكن دائماً دافعنا إليه حب الخير وتأديتنا له لوجه الله . فإن الذى يهب حياته لتحقيق فكرة سامية يقصد بها خدمة الوطن أو خير الإنسانية ، لا يبالى عادة بكل ما يقابله من عقابات ومتاعب وآلام ، بل يرحب بأن يضحى بحياته ، ويقدم على الموت فى سبيله تحقيق ذلك الخير الذى سيعم الجميع لأن أداء مثل هذه الأعمال الخيرة تعطى للحياة قيمة عليا ، يتلاشى فيها كل الحقائق المتناقضة ، أو تحرر بها الروح تحريراً كاملا من كل ما يتصل بالحياة ، ولا تدرك إلا حقيقة خالدة ، هى حقيقة وحدة الكون الشامل الذى يتجلى الله فى جميع أجزائه .

وأخيراً نلخص كل ما سبق فى أن طاغور لم يجد صعوبة فى التوفيق بين طلب العلم وأداء العمل وبين ما فهمه من تعاليم الهندوس . فرأى أن العلم من أروع الوسائل التى تقربنا من الطبيعة أو تساعدنا على الاندماج فى الكون والاتحاد بالوجود ، لأن القوانين التى يتوصل إليها العلم هى فى الأصل صور صغرى للحقيقة الكبرى ، وتبين أن هناك صلة عقلية وثيقة بين الإنسان والطبيعة ، وأنها فى اتحاد تام مع الأشياء . فالتزود بها ، والبحث عنها ، والاستمرار فى المزيد من الكشف عنها أمر ضرورى لكل فرد يريد أن يبرز الحقيقة الكبرى الكامنة فى نفسه ، ويدرك وحدة الوجود الشاملة . أما عن العمل فهو من أهم الوسائل التى تحرر قوى الروح ، ويعبر عن طبيعتها ، ويظهر أفكارها ومشاعرها وإحساساتها ، فتتحقق حريتها الكاملة فى الحياة ، وتفوز بالعيش فى اللانهاية .

عبد العزيز محمد الزكى
ليسانسيه فى الفلسفة

وزارة المعارف العمومية

تبحث وزارة المعارف فى افتتاح قسم بمدرسة المعلمين العليا لإعداد مدرسين للغة الفرنسية بالمدارس الأميرية ويمنح المتخرجون فيه الدرجة السادسة الفنية . وسيكون التعليم بهذا القسم بالمجان ويمنح المتفوقون مكافأة قدرها ٣ جنيهات شهرياً طوال مدة الدراسة . ويقبل فيه : —

أولا — الناجحون بالقسم الفرنسى فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الثانوية القسم الخاص من جميع الشعب

ثانياً — الناجحون بالقسم الانجليزى فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الثانوية القسم الخاص من جميع الشعب بشرط أن يكونوا حاصلين على ٦٠ ٪ على الأقل من النهاية العظمى فى اللغة الفرنسية وبشرط أن يؤدوا امتحانا للدخول فى اللغة الفرنسية فى موعد سيعلن عنه فيما بعد

فعلى راغبى الالتحاق تقديم الأوراق الآتية للمدرسة بمقرها بسراى موصيرى بالأورمان فى موعد غايته ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٧

١ — استمارة رقم ٣٤

٢ — الاستمارة البيضاء الدالة على النجاح فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص

٣ — شهادة الميلاد

٤ — تعهد بالعمل فى مدارس الحكومة مدة لا تقل عن ٥ سنوات

وسيوقع على الطلبة الكشف الطبى ويؤدون اختباراً شخصياً فى مواعيد سيعلن عنها فيما بعد.

٨١٤٦